الدكتورة: خيرة بورنان السنة الثانية: قسم الفلسفة

محاضرات مقياس:

فلسفة التأويل في العصور الوسطى

المحاضرة رقم: 05

إشكالية تأويل النص الديني
(في اليهودية)

تمهيد:

الحديث عن التأويل في العصر الوسيط في مرجعيته الغربية، هو حديث ولاشك عن "النَّص المقدس"، بوصفه المرجعية الأساسية ليس للإيمان والحياة الأخروية فحسب، بل بوصفه أيضا حامل المعرفة والعلم. وقد شكل التأويل التحدي الأكبر للعقل الغربي؛ فمن جهة وجد هذا العقل نفسه في مواجهة سلطة معرفية تعتقد أن الالتزام بظاهر النص وحرفيته، هو من الإيمان والعقيدة الصحيحة، وكلّ خروج عن هذا يعدُّ خروجا عن النّص المقدس في حدِّ ذاته. ومن جهة أخرى النص المقدس ليس قطعي الدلالة ولا واضح المعاني دائما؛ فهناك علامات متوارية في نسيج هذا النص تستدعي تأويله، ووراء المعنى الحرفي دلالات رمزية لابد من فك شفرتها.

هذا الغموض والالتباس أسفرا تعددا في الفهم واختلافا في التفسير، كان لابد معه من وضع قواعد تحسم هذا الخلاف وتضع حدا لصراع التأويلات. يضاف إلى هذا أن بعضا من اللاَّهوتيين سواء من اليهود أو المسحيين كانوا على اطلاع جيّد بالفلسفة، وما تمنحه من سلطة للعقل، الأمر الذي شكل رافدا أساسيا لعملية تأويل النص المقدس حتى يتفق وبعض الحقائق الفلسفية الصحيحة، ذات البعد العالمي، وذلك ما لا يكون إلا بالتأويل.

وهكذا تراكمت على تراخي العصور محاولات لتفسير وشرح النصوص المقدسة، وتشكلت مدارس، وازدهرت مناهج، في التقليد اليهودي. ومن خلال هذه المحاضرة سنقف ـ تباعا ـ على جهود أبرز رواد التأويل في هذين التقليد، مركزين على وجه الخصوص على ما يعرف بـ التأويل الرمزي، أو التأويل المجازي.

محاضرات مقياس:
فلسفة التأويل في العصور الوسطى

أولا: تعريف الهيرمينوطيقا اليهودية

عرف التقليد الهيرمينوطيقي اليهودي مع بداية العصر الوسيط أربعة مناهج لتفسير/ تأويل التوراة. وبالرغم من تداخلها فلكل منها مجاله ودلالاته، وقد أطلق اليهود على هذه المناهج اسم (الفردوس) وهي تسمية تجمع الحروف الأولى لأربع كلمات وهي: التأويل الحرفي (بشاط)، التأويل المجازي (رمز) التأويل الوعظي الأخلاقي (دراش)[1]، التأويل الصوفي أو الروحي (سود). وسيكون تركيزنا في هذه المحاضرة على التأويل الرمزي كونه التفسير الأثير عند فلاسفة اليهود. والسبب الرئيس الذي دفع هؤلاء وغيرهم إلى إعادة تفسير التوراة، هو الرد على أولئك الذين لم يروا في التوراة إلا مجرد أساطير خالية تماما من أي نسق عقلاني، إضافة إلى وجود أسفار في التوراة تتضمن تجسيما وتشبيها لله، لذلك عمدوا إلى تأويل تلك الأسفار تأويلا مجازيا يتجاوز دلالتها الحرفية.

والتأويل الرمزي أو التأويل المجازي يدل على إمكانية انطواء التعبير على دلالة أخرى لم يفصح عنها أو أشير إليها عبر الرمز. وإذ يسعى التأويل الرمزي إلى اختراق حجب الدال ليبلغ المدلول الخفي وغير المرئي والمفارق، فهو نشاط وممارسة لا تدركه عقول العامة، وإنما يقتضي السلوك الروحي والباطني للتحكم والأخذ بزمامه.

والمتداول بين أكثر الباحثين أن هذا النوع من التأويل كان مستعملا وشائعا لدى فلاسفة الإغريق، الذين طبقوه على الأساطير الإغريقية والقصائد الهوميرية، كما معروفا لدى يهود الإسكندرية، إذ استخدموه في فهم نصوص التوراة وشرحها شرحا رمزيا، اعتقادا منهم أن الكتاب المقدس إنما يخاطب الناس جميعا، العامة منهم والخاصة، ولهذا يلجأ إلى الرموز واستعمال المجاز سترًا للحقيقة على غير أهلها، إذن فالتأويل ضروري لأن فهم النص على حقيقته ليس مقدورا للجميع.

---

[1]- كلمة دراشDarash كلمة عبرية تعني" يدرس"،" يحقق" أو "يبحث". ومنها اشتقت كلمة مدراشMidrash. وتعني " تفسير توراتي قامت به سلطات يهودية قديمة" وهو أقدم تفسير عرفه اليهود يقوم على الوعظ الأخلاقي.

محاضرات مقياس:
فلسفة التأويل في العصور الوسطى

ثانيا: التأويل عند فيلون السكندري

وقد كان فيلون الإسكندريphilon d'Alexandrie (25 ق.م ـ 50م)، أشهر اللاهوتيين اليهود وأبرز فلاسفتهم، المعين الأكثر أهمية لهذا الاتجاه في الإسكندرية. وقد ألّف العديد من الكتب الفلسفية والشروح التوراتية، وجميعها باليونانية، أهمها «في خلق العالم»، و«تأويل سفر التكوين». فما هي الدوافع والأسباب التي جعلت فيلون ينزع نحو هذا النوع من التأويل؟

1/ الرد على أصحاب التفسير الأسطوري

اعتمد فيلون التأويل المجازي للتخلص من المعنى الحرفي الأسطوري، الذي يهدف إلى نقد التوراة بجعلها بمنزلة كتب الأساطير الإغريقية؛ فهي خلو من كل توجه عقلاني ونسقي، إنها ضرب من المتناقضات، وفي المقابل أراد أن يظهر للحضارة اليونانية ـ الرومانية المحيطة به، مدى توافر العقلانية والوضوح في الكتاب المقدس وفي التفكير اليهودي ككل. ولأجل ذلك أوّل الأشخاص الذين جاء ذكرهم في قصص التوراة، وذلك بأن يَجْعَلهم رُموزًا لبعض حالات النَّفس، ومن مثل هذا قصة خلق آدم ثم حواء من إحدى أضلاعه، وإغراء الحية لهما، كل هذا ونحوه تناوله فيلون بالتأويل المجازي الذي يُعتبر الغرض الأخلاقي هو الناحية الأساسية فيه. ومما جاء في الإصحاح الثالث من سفر التكوين « وسمعا صوت الرب الإله ماشيا في الجنة عند هبوب ريح النهار، فاختبآ آدم وامرأته من وجه الرب الإله في وسط شجر الجنة 9 . فنادى الرب الإله آدم وقال له: « أين أنت؟ 10.« فقال: «سمعت صوتك في الجنة فخشيت لأني عريان فاختبأت11 .« فقال: « من أعلمك أنك عريان؟ هل أكلت من الشجرة التي أوصيتك أن لا تأكل منها؟ 12 « فقال آدم: « المرأة التي جعلتها معي هي اعطتني من الشجرة فأكلت 13 .« فقال الرب الإله للمرأة: « ما هذا الذي فعلت؟» فقالت المرأة: « الحية غرتني فأكلت 14».

لا يشك فيلون في صدق ما ورد في هذا النَّص، لكنه غامض لا يفهمه إلا من يحسن التأويل، وقد أوّل هو هذا النص على النحو الآتي: خلق الله العقل الخالص في عالم المثل وهو الإنسان المعقول، ثم صنع على مثال هذا العقل عقلا أقرب من الأرض هو آدم، وأعطاه الحس وهو حواء معونة ضرورية له فطاوع العقل الحس، وانقاد للذة، وهي الحية التي وسوست لحواء.

محاضرات مقياس:
فلسفة التأويل في العصور الوسطى

2/ دفع شبهة التجسيم عن التوراة

يرى فيلون أنَّ من الضروري تأويل النصوص التي تثبت بظاهرها لله ما لا يليق به من الصفات والأحوال: كالتجسيم، والكون في مكان، والكلام بصوت وحروف، والندم، وهو في هذا يقول: الله لا يأخذه الغضب ولا يندم ولا يتكلم بحروف وأصوات، وليس له مكان خاص يَقَرُّ فيه فالله (مثال الخير الذي قال به أفلاطون وهو يهوه إله بني إسرائيل) كما يقول فيلون لا ينفعل فيغضب ولا يندم ولا يتكلم بحروف وأصوات، وليس له من مكان يكون فيه، ولا يهتم بالتفاصيل التافهة. ومن بَابِ التَّمثيل نرى التوراة تقولُ: « إن ارتهنت ثوب صاحبك فإلى غروب الشمس ترده له؛ لأنه وحده غطاؤه، هو ثوبه لجلده، في ماذا ينام». وهنا يصيح فيلون: « ولكن كيف! هل يُعنى الله بمثل هذه التفاصيل التافهة؟» ثم يقول: « إنَّ أبطأ الأذهان إدراكًا وفهمًا ليَرى أنَّ وراء الحرف معنى آخر يُبين بالتأويل الحق المجازي». فالله يجب أن يكون فوق هذا العالم المحدود، ولا تسطيع نفس الإنسان أن تصل إلى الله عن طريق العقل والتفكير، ولكن عن طريق رياضة النفس والكشف.

وهو يؤوِّل كذلك قصَّة خلق العالم في ستة أيام، وهي بنصها الحرفي أنَّ الله في خلق العالم كان مُحتاجًا إلى مُدَّة، وفي هذا يقول: « إنَّ الأيام الستة التي يتحدث عنها موسى لا تعني أنَّ الخالق كان في حاجة إلى مُدَّة من الزمن»، ولكن موسى أراد أن يعرفنا باللغة التي نفهمها نحن البشر بنظام العالم الذي خلقه الله، ومنزلة بعضه من بعض، وهذا أمر فهمه يسير في رأي فيلون الذي يقول في هذا الصدد: « إنِّي أَرى منَ السَّذاجة أن نَعْتَقِدَ من هذا أنَّ العالم خُلِقَ في ستة أيام، أو بصفة عامَّة في فترة مِنَ الزمن».

3/ التأكيد على عالمية الديانة اليهودية

ويؤوِّل فيلون أيضًا لغاية أُخرى مُهِمَّة جدًّا في رأيه، وهي أنْ يَصِيرَ الدين الموسوي دينًا عالميًّا. وهذه الغاية يحول دونها فهم النصوص فهمًا حرفيًّا دائمًا. ولذلك نراه يتشدد في ضرورة تأويل كثير من نصوص التوراة، بل إنه يتهم الرافضون طريقة التأويل المجازي، بالإلحاد.

محاضرات مقياس:
فلسفة التأويل في العصور الوسطى

4/ درء التعارض بين الفلسفة والدين

كانت أهم إشكالية تعرض لها فيلون هي درء التعارض بين الدين اليهودي والفلسفة اليونانية، وأن يبين ما هنالك من صلة وثيقة بين الفلسفة اليونانية والديانة اليهودية، اعتقادا منه أن الفلسفة اليونانية استمدت حقائقها من الديانة اليهودية، فمذهب هيراقليطس في الأضداد قد أخذ عن سفر التكوين، وأفلاطون وأرسطو أخذًا تعاليمهما من موسى ومن التوراة، ومن هنا نشأ ما لهما من حكمة. ولقد أعجب فيلون بالفلسفة اليونانية وخاصة فلسفة أفلاطون أيما اعجاب، حتى أنه لقب بأفلاطون اليهود، لكن ايمانه بالتوراة كان أشد، فعمد إلى قراءتها وتأويلها بعيون فلاسفة اليونان؛ فشرح التوراة كما شرح الإغريق هوميروس منذ زمن بعيد، وفق المنهج الرمزي المجازي، وعلى غرار شرح الفيثاغوريين والأفلاطونيين والرواقيين للأساطير الإغريقية، منطلقا من مقدمة منهجية كبرى، وهي وحدة الحقيقة الفلسفية، كما تجلّت ـ على وجه الخصوص ـ عند أفلاطون، والحقيقة الدينية الواردة في التوراة.

ثالثا: التأويل لدى ابن ميمون

1/ ضرورة التأويل عند بن ميمون

يرى ابن ميمون[2] ضرورة التأويل المجازي للتوراة. وأهم كتاب ألفه في التأويل هو دلالة الحائرين[3]، ويندرج ضمن المؤلفات التي حاولت التوفيق بين الشريعة اليهودية والفلسفة اليونانية. والتأويل ضروري عند ابن ميمون لفهم المجازات الواردة في التوراة، وهو ما أَفْصَح عنه في مُقَدِّمة كتابه: «هذه الرِّسَالة لها أيضًا غرض ثانٍ، وهو شرح النصوص المجازية الشديدة الغموض، هذه النصوص التي نصطدم بالكثير منها في أسفار الأنبياء دون أن يكون واضحًا أنَّها من المجاز، والتي ـ على الضد من هذا ـ يأخذها الجاهلُ والذاهل على معناها الخارجي، دون أن يرى فيها معاني خفية».

واستبصار هذه المعاني ليس متحا لجميع العقول، فثمة تراتبية يقرها ابن ميمون؛ عقول الدهماء في مقابل عقول الحكماء. وبالمثل، تبديد الحيرة بين ظاهر النص وباطنه، ممتنعة عن عقول الجمهور، متاحة

---

[2] - أبو عمران موسى بن ميمون بن عبيد الله القرطبي (1135م ـ 1204م) من أحبار اليهود وفلاسفتهم ولد بقرطبة ومات بالقاهرة. عرف في كتب التراجم العربية بموسى بن ميمون، وكان يكنى بأبي عمران، وعرف عند الغربيين بـ"ميمونيدس" (Maimonides) أما في الأوساط اليهودية فقد عُرف اسمه بـ رمبام اختصارًا لجملة (رِبي موسى بن ميمون) »، في حين اشتهر عند العرب بلقب «الرئيس»، نظرًا لترؤسه الشئون الدينية والسياسية للطائفة اليهودية في عدة أمصار عربية خلال العصر الوسيط، لا سيما في مصر.

[3] - وهو المصدر المعتمد في هذه المحاضرة.

محاضرات مقياس:
فلسفة التأويل في العصور الوسطى

لذوي العقول الراجحة والبرهانية، أي الفلاسفة. فإذا كان حظ الجمهور، بحسب طاقته، هو حمل الأمور المبهمة على ظاهرها وفهمها وفقا لذلك الظاهر، هم لا يفهمون من الحقيقة إلا ظلالها، فهم في مستوى الظن لا اليقين، وليس القدرة على مجاوزته، في مقابل هذا قدر الفلاسفة الذهاب وراء ظاهرها للكشف عن باطنها الحقيقي، وادراك الحق واليقين، عن طريق التأويل.

وثنائية الظاهر والباطن، وازدواجية الدلالة، لا تعني ازدواجية الحق، لأن الحق لا يركه إلا أهل التأويل. وموسى بن ميمون « بهذا النوع من الفصل الدلالي والخطابي، نعتقد أنه لم يقم بالخطوة الحاسمة التي أنجزها ابن رشد، والمتمثلة في اعلانه صراحة أن ظاهر التمثيل الذي يدركه الخيال هو أيضا حق، وأن هذا الحق التمثيلي لا يضاد الحق الماهوي الذي يُجلّيه العقل بأساليبه الاستدلالية». فظاهر الوحي، وهو حظ العامة من الفهم ـ كما سنرى مع ابن رشد ـ هو أيضا حق.

2/ قواعد التأويل وشروطه

قال ابن ميمون بضرورة حظر الممارسة التأويلية عن غير أهلها، مطوقا إيّاها بقاعدتين أساسيتين ترتبط الواحدة منها بالأخرى:

- **قاعدة عدم التمكين**، أي عدم تمكين العامة، بل وأشباه الفلاسفة من التأويل، وهو ما يؤكده ابن ميمون في أكثر من موضع ففي مستهل كتابه يصرح« وليس الغرض لهذه المقالة تفهيم جملتها للجمهور ولا للمبتدئين بالنظر». أولئك« الذين لم يروا ضوء(...) يوماً قط، بل هم في ليلتهم يخبطون، وهم الذين قيل فيهم:(إنهم لا يعلمون ولا يفهمون، سيسكنون في الظلمة)، وخفي عنهم الحق جملة مع دة ظهوره، كما قيل فيهم: (إنهم لايرون النور الذي لمع في السماء)، ووهم جمهور العامة، فلا مدخل لذكرهم هنا في هذه المقالة».

- **قاعدة التعمية الدلالية**، أي الاخفاء الدلالي أو ما يعرف بالتورية؛ فالقصد من التأويل التعمية لا التجلية. وتأسيا بالأنبياء، وامتثالا لأمر الشريعة حذر من مغبة اطلاع الجمهور على الأسرار الخفية، يقول: « وقد علمت قولهم عليهم السلام "لا تُعطى قصة الخلق لاثنين معاً"... ولذلك جاءت تلك المعاني [الطبيعية] أيضاً في كتب النبوة بأمثال، وتكلموا فيها أيضاً الحكماء عليهم السلام بألغاز وأمثال اقتفاءً لأثر الكتاب، لأنها أمور بينها وبين العلم الإلهي ارتباط عظيم. وهي أسرار من أسرار العلم الإلهي». وفي موضع آخر يقول: « وأنا أحلف بالله تعالى لكل من قرأ مقالتي هذه أن لا يشرح منها ولا كلمة واحدة ولا

محاضرات مقياس:
فلسفة التأويل في العصور الوسطى

يبين لغيره منها إلا ما هو بيِّن مشروح في كلام من تقدمني من علماء شريعتنا المشاهير». وتحذيره من الشرح في هذه العبارة دليل على أن في "دلالة الحائرين" معاني باطنة لا تتضح إلا بالشرح، وهذه إشارة خفية إلى التعليم المستور في كتابه.

إضافة إلى قاعدتي الحظر والكتمان، يضع ابن ميمون جملة من الشروط تضبط عملية التأويل المجازي، وتصونه من تطفل من هم ليسوا أهلا له، من هذه القواعد:

1- يجبُ أن يكون في الظَّاهر ما يُرشد المتأمل بعقله إلى المعنى الخفي.

2- أن يكون هذا المعنى الخفي أجمل وأليق من المعنى الذي يدلُّ عليه النص بظاهره.

3- أن نصير إلى التأويل إذا كانت النصوص لو أخذت حرفيًّا تؤدي إلى التجسيم، أو جواز النقلة أو الكون في مكان على الله، ونحو هذا مما يتصل بصفات المخلوقين التي يَسْتَحيل عقلًا أن تُنسب إليه؛ ولهذا يجبُ إذاعة تأويل هذه النصوص وأمثالها للعامَّة والخاصَّة على سواء.

4- أن يُصار إلى التأويل متى قام الدَّليل العقلي الصحيح على بُطلان المعنى الذي يُؤخذ من ظاهر النَّص؛ ولهذا تُركت النصوص التي تشهد بظواهرها لحدوث العالم، مع إمكان تأويلها؛ لأنَّه لم يَقُم الدليل القاطع على قِدمه حتى من أرسطوطاليس.

5- ألا نصل بسبب التأويل إلى معنى يهدم أساسًا من أسس الشريعة؛ ولهذا كان السَّببُ الثاني في عدم تأويل النصوص التي تشهد بظاهرها لحدوث العالم، أنَّ القول بقِدَمِه كما يرى أرسطوطاليس يستأصل الدين من أساسه، ويدمغ كل المعجزات بأنها أكاذيب.

6- ألا يُذاع من التأويل إلا القليل الذي يكفي لفهمه، وأن يكون ذلك للمُستعد له فحسب. وهو ما طبقه ابن ميمون مع تلميذه يوسف بن يهوذا.

الخلاصة

- نصوص العهد القديم يكتنفها الغموض الأمر الذي يتطلب تأويلها
- عملية تأويل النص المقدس(التوراة تقتصر على أصحاب العقول ممن يفقهون لغة الرمز
- إن الحقائق التي جاء بها العقل في الفلسفة اليونانية تتطابق مع الحقائق التوراتية.
- أولوية التأويل الباطني(المجازي) على التأويل الحرفي.